

## وصية الملك الصالح نجم الدين أيوب

إلى ابنه توران شاه: دراسة نقدية (\*)

د. تركي بن فهد آل سعود

يتناول البحث وصية منسوبة إلى السلطان الأيوبي الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل (٦٣٧-٦٤٧هـ / ١٢٣٩-١٢٤٩م)، موجهة إلى ابنه وولي عهده الملك المعظم توران شاه، ويسعى إلى التعرف إلى المستفيدين من هذه الوصية، بتحليل نصها، وما نتج عنها وتسببت فيه من أحداث خلال مدة حكم توران شاه القصيرة، مستعيناً بالمصادر؛ لتوضيح ما إذا كانت سليمة من التزوير والزيادة. وألحق بالبحث نص الوصية من مصدرها.

The Testament of al-Malik al-Saleh Najm al-Din Ayyub for his son Turan Shah: A Critical Study

Dr. Torki bin Fahad Al-Saud

This study deals with a testament attributed to the Ayyubid Sultan, al-Malik al-Saleh Ayyub bin al-Malik al-Kamil (1239-1249), made for his son and heir-apparent, Turan Shah.

The article seeks, by analyzing the document's content as well as the consequential events that followed during the short reign of Turan Shah, to identify the beneficiaries of the testament, and to verify, by consulting various external sources, the authenticity of the testament, the original text of which is appended herewith taken from its original source.

قدم للنشر في ٢٢/٣/١٤٣٦هـ، وقبل للنشر في ٢١/٥/١٤٣٧هـ

Department of History - College of Arts  
- King Saud University

قسم التاريخ - كلية الآداب  
جامعة الملك سعود

torkif@ksu.edu.sa

يواجه القارئ لأحداث نهايات الدولة الأيوبية منذ وفاة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل (٦٣٧-٦٤٧هـ / ١٢٣٩-١٢٤٩م)، مروراً بمقتل آخر سلاطين الأيوبيين الملك المعظم توران شاه (٦٥٢-٦٥٦هـ / ١٢٥٤-١٢٥٨م)، سلسلة من الأحداث المتداخلة وما تمثله من مصالح متضاربة، تجعله يقف عند ما أوردته المصادر وما اختاره من نقل عنها من المتأخرين من الروايات. وهذا البحث سيركز على وصية الملك الصالح أيوب إلى ابنه توران شاه، التي أورها أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٣م) في كتابه: نهاية الأرب في فنون الأدب<sup>(١)</sup>، مقيماً لها، مستقرئاً ما بين السطور ورابطاً بين الأحداث؛ ليخرج بنظرة مغايرة مرتكزاً على الأدلة من مصادرها.

### آخر عهد الملك الصالح نجم الدين؛

تتفق المصادر على أن المتحكم في سير أمور الدولة عندما اشتد المرض في آخر أيام الملك الصالح وهو يواجه في المنصورة<sup>(٢)</sup>

(\*) أشكر كلاً من: أ. د. عبدالعزيز الهلابي، ود. عبدالله الزيدان، وأ. د. محمد البقاعي، لما قدموه من ملحوظات مفيدة في أثناء كتابة هذا البحث.

(١) نشر كلود كاهن وإبراهيم شبوح نص هذا الوصية من مخطوط لكتاب النويري المذكور مع ترجمته والتعليق عليه. راجع:

Claude Cahen and Ibrahim Chabbouh, "Le Testament d'Al-Malik As-Salih Ayyub," Bulletin d'études orientales 29 (1977), pp. 97-114.

(٢) المنصورة: بلدة أنشأها الملك الكامل بن العادل (٦١٥-٦٣٥هـ / ١٢١٨-١٢٣٨م) بين دمياط والقاهرة ليرابط بها الجيش الإسلامي في مواجهة الفرنج الذين احتلوا دمياط سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م. راجع: ياقوت الحموي، معجم البلدان (بيروت: دار صادر، د. ت)، ٥: ٢١٢.

الحملة الصليبية السابعة، هم ثلاثة<sup>(٣)</sup>: زوجته أم خليل شجر الدر<sup>(٤)</sup>، ونائب السلطنة الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ<sup>(٥)</sup>، والطواشي جمال الدين محسن، كبير المماليك الجمدارية والبحرية<sup>(٦)</sup>؛ وهؤلاء هم الذين قرروا مجتمعين

(٣) محمد بن سالم بن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري (صيدا: المكتبة العصرية، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م)، ١٠١؛ يوسف بن قزأوغلي سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تحقيق: إبراهيم الزبيق (دمشق: الرسالة العالمية، ١٤٢٤هـ/٢٠١٣م)، ٢٢: ٤٠٨-٤١٠؛ محمد بن أحمد الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: بشار عواد معروف (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ١٤: ٥٧٧؛ أحمد بن علي المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة وسعيد عبدالفتاح عاشور (مصر: لجنة التأليف والترجمة والنشر، دار الكتب، ١٣٧٦-١٤٠٣هـ/١٩٥٦-١٩٨٣م)، ١/ ٢: ٣٣٩، ٣٤٣.

(٤) أم خليل، زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب، تولت أمور الحكم بعد مقتل السلطان توران شاه، المحرم ٦٤٨هـ/ مايو ١٢٥٠م إلى ربيع الآخر من السنة نفسها؛ وقُتلت سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م. ولتفاصيل ترجمتها راجع: موسى بن محمد اليونيني، ذيل مرآة الزمان (حيدر آباد: دائرة المعارف العثمانية، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م)، ١: ٦١؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ١٤: ٧٧٧؛ خليل بن أيك الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: هلموت ريتز وآخرين (فيسبادن: فرانز شتاينر، ١٣٨١-١٤٢٩هـ/ ١٩٦٢-٢٠٠٨م)، ١٦: ١٢٠.

(٥) الأمير فخر الدين يوسف بن محمد بن عمر ابن شيخ الشيوخ، أمير كبير ولي نيابة السلطنة للملك الصالح نجم الدين أيوب، واستشهد في مواجهة الصليبيين في المنصورة سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٥٠م. انظر ترجمته في: ابن واصل، مفرج الكروب، ١١١؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٢٢: ٤١٠؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ٢: ٢١٤؛ محمد بن شاعر الكتبي، فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار صادر، د.ت)، ٤: ٣٦٦؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ١٤: ٦٨٦.

(٦) جمال الدين محسن الصالح، لم أجد له ترجمة، إلا أنه كان له دور في حصار لويس السابع في الحملة الصليبية السابعة، وهو الذي =

دعوة الناس إلى بيعته الملك المعظم توران شاه وليَّ عهد لأبيه، للتعمية على وفاته، والحلف كذلك للأمير فخر الدين بالأتابكية وولاية عهد توران شاه<sup>(٧)</sup>. وعلى الرغم من أن بعض المصادر قطعت بعزم الأمير فخر الدين على الاستيلاء على السلطنة بعد موت الصالح، فإنه شارك فيما ذكرنا آنفاً بعد أن فشلت محاولته تلك إثر وفاة الملك الصالح. على أي حال، تمت البيعة والحلف المذكور في المنصورة، وكُتب بذلك إلى نائب السلطنة في مصر الأمير حسام الدين أبي علي الهذباني<sup>(٨)</sup>، فحلف هو أيضاً من عنده<sup>(٩)</sup>.

وعندما وصل السلطان الجديد، الملك المعظم توران شاه، إلى مصر ومن ثمَّ إلى المنصورة في ٢٣ من ذي القعدة سنة

= أعطاه الأمان فاستأسر له. ويبدو أنه هو الذي استعانت به شجر الدر عند قتلها الملك المعز أيبك، فسلِّبَ مع من شارك في قتله سنة ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م. ابن واصل، مفرج الكروب، ١٢٤، ١٩٨؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ١: ٤٥، ٤٨، ٢: ٢١٢.

(٧) ابن واصل، مفرج الكروب، ١٠٠، ١٠١؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ١٤: ٣٦٣-٣٦٤، ٥٧٧؛ المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١/ ٢: ٣٣٩، ٣٤٣.

(٨) الأمير حسام الدين أبو علي بن محمد بن أبي علي بن باسك الهذباني الكردي (ت ٦٥٨هـ / ١٢٥٩م). إستدار الملك الصالح ومحل ثقته، اتصل بخدمته سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م؛ وكان مع توران شاه في حصن كَيْفَا أتابك، ثم حضر إلى الشام خلال سعي الملك الصالح إلى السلطنة، وقبض عليه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، ثم أفرج عنه، والتحق بالملك الصالح أيوب في مصر، ثم ولي نيابة الشام ومصر، واستمر إلى أن عزله توران شاه بعدما تولى السلطنة. راجع: ابن واصل، مفرج الكروب، ١٠٦، ١٢٥، ٩٨ هـ ٢: اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ٢: ٧٧-٨٧، ٣٣٣؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ١٤: ٩٠٧.

(٩) ابن واصل، مفرج الكروب، ١٠٢؛ المقرئ، السلوك، ١/ ٢: ٣٤٣.

٦٤٧هـ<sup>(١٠)</sup>، كان الأمير فخر الدين قد خرج من المشهد بعد استشهاده في مواجهة الصليبيين، حينما هاجموا المنصورة<sup>(١١)</sup>؛ وتذكر المصادر غضب السلطان الجديد على من ضمنوا له البيعة السابقة الذكر، فباع ممتلكات الأمير فخر الدين، أو بالأصح ما بقي منها، بأرخص ثمن نكالا<sup>(١٢)</sup>، وأرسل إلى شجر الدر يطالبها بأموال ويتهدها، حتى خافت على نفسها فحرّضت المماليك البحرية على قتله<sup>(١٣)</sup>. ويغيب ذكر الطواشي من هذه القائمة، ربما كان ذلك لضعف دوره، أو ضعف خطره، وأرجح الثاني.

فما سبب غضب السلطان توران شاه؟ خاصة أن فخر الدين وشجر الدر أخذوا له البيعة في غيابه. أما سبب غضبه من فخر الدين فهو واضح إلى حد ما؛ فقد أشارت بعض المصادر تلميحاً والأخرى تصريحاً إلى طمعه في السلطنة، ويؤيد ذلك الإجراءات التي اتخذها منذ موت السلطان الملك الصالح أيوب إلى أن اضطر، كما يفيد مصدران معاصران، إلى أخذ البيعة لتوران شاه والإنفاذ إليه ليحضر إلى مصر من

(١٠) ابن واصل، السابق، ١١٨.

(١١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٢٢: ٤١٠؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ١١١؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ١٤: ٣٦٤، ٥٨٧.

(١٢) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٢٢: ٤١١؛ المقرئ، السلوك، ١/ ٣٥٣: ٢.

(١٣) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٢٢: ٤١٧؛ المقرئ، السلوك، ١/ ٢: ٣٥٨؛ محمد بن أحمد ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، ١/ ١: ٢٨٣-٢٨٤.

مقره<sup>(١٤)</sup>؛ إضافةً إلى تحذير وصل إلى توران شاه من خصم فخر الدين، الأمير حسام الدين أبي علي، يفيد بتدبير الفخر للاستيلاء على السلطنة<sup>(١٥)</sup>. وأرجح أن هناك ذنباً آخر اشترك فيه فخر الدين مع شجر الدر، وهو تزوير وصية باسم الملك الصالح أيوب موجهة إلى ابنه توران شاه يوصيه فيها، وقد أوردها كاملة أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٣م)، واطلع عليها بحكم عمله في الدواوين<sup>(١٦)</sup>. وأشار النويري إلى أنها بخط الصالح نفسه، وأكد ذلك بقوله: "وقد وقفت على الكتاب المذكور - وهو بخط السلطان الملك الصالح بجملته"<sup>(١٧)</sup>. ومعرفة النويري بخط الصالح أتت من استعراضه وثائق ورسائل أخرى محفوظة بالدواوين التي

(١٤) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٢٢: ٤١٠؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ١٠٤؛ الذهبي، تاريخ الاسلام، ١٤: ٥٧٧.

(١٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ١٠٤؛ المقرئ، السلوك، ١/ ٢: ٣٤٥.

(١٦) النويري: تولى نظر ديوان الجيش في طرابلس، ونظر ديوان الدقهلية والمتراحية؛ وكان له قرب من السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣-٧٤١هـ / ١٢٩٣-١٣٤١م). انظر: خليل بن أيوبك الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: علي أبو زيد وآخرين (دمشق: دار الفكر، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م)، ١: ٢٨١؛ الوافي، ٧: ١٦٥؛ جعفر بن ثعلب الأدفوي، الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق: سعد محمد حسن (مصر: الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦١م)، ٩٦؛ أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (حيدر آباد: دائرة المعارف العثمانية، ١٣٤٩-١٣٥٠هـ)، ١: ١٩٧.

(١٧) أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (ج ٢٩)، تحقيق: محمد ضياء الدين الرئيس ومحمد مصطفى زيادة (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م)، ٣٤٠.

عمل بها . فكيف إذن ترجَّح تزويرها على الرغم من تأكيد النويري أنها بخط السلطان؟ بل كيف حُفظت إلى وقته في الدواوين مع معرفة المعظم توران شاه بأنها مزورة؟

أما التساؤل الأول، فقد أوردت المصادر المعاصرة للصالح انطلاء تزوير رسائل بخطه على أقرب القيادات إليه، الذين عملوا معه وقتاً طويلاً<sup>(١٨)</sup>؛ فكيف لا ينطلي على النويري المتأخراً؟ وأما الإجابة عن التساؤل الثاني، فلا غرابة أن يحتفظ السلطان توران شاه بالوثيقة على الرغم من تزويرها، فهي دليل إدانة، ولأن مدة حكم توران شاه كانت قصيرة جداً<sup>(١٩)</sup> كان جلُّها في المنصورة وفارس كور<sup>(٢٠)</sup> في مواجهة الصليبيين، فلم تتسنَّ له الفرصة للإعلان عن دليل الإدانة واستخدامه، وهو الذي ضمَّ بعد مقتله المفاجئ ضمن وثائق أخرى وجدت عنده إلى الديوان المعني بحفظها .

ويجد المتأمل في الوصية عدّة نقاط ترجَّح التزوير، سواء كان اختلافاً كاملاً للوثيقة من لا شيء، أو إعادة كتابة نسخة منقّحة مزيدة من وصية صغيرة بالأصل، أملاها الصالح ثم

(١٨) ابن واصل، مفرج الكروب، ١٠٢: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٤٠٩: ٢٢.

(١٩) قُتل الملك المعظم بعد وصوله إلى مصر ومباشرة الحكم لشهرين وأيام. انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ١١٨، ١٢٨، ١٣٠.

(٢٠) فارس كور، أو فارسكُر، أو فارسكور: كورة من كور الدقهلية بمصر. راجع: ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان (بيروت: دار صادر، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م)، ٤: ٢٢٨؛ علي مبارك، الخطط الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة (بولاقي: المطبعة الأميرية، ١٣٠٥هـ)، ١٤: ٦٤.

وضع علامته عليها، والاحتمال الثاني هو ما أرجّحه. وهذه النقاط هي:

أولاً: سبق أن ذكر أن النويري الذي رأى الوصية أكد أنها بجملتها بخط الملك الصالح. فإذا علمنا أنها كُتبت والصالح قد اشتدَّ به المرض في المنصورة، وهو الترجيح الأقوى<sup>(٢١)</sup>، وكان في آخر أيامه وقد أشغله المرض عن كل شيء تقريباً، ومنعه من مزاوله أبسط أمور الحكم<sup>(٢٢)</sup>، فكيف إذن تهيأ له كتابة وثيقة بهذا الطول بخطه، كما ذكر النويري؟ ولعل قائلًا يقول: قد ورد في الرسالة قول الصالح: "وكتبتُها [أي: الوصية] في مدة طويلة"<sup>(٢٣)</sup>. وهذا صحيح لو لم تكن الوصية "بخطه"، أو كان التوقيع فقط توقيعاً، أما وهي كاملة بخطه - كما ذكر النويري - فلا بد أنها بيّضت من مسودة، وهنا ينطبق عليها الاعتراض نفسه.

ثانياً: هناك تعارض صريح بين موقف الصالح الذي نقلته المصادر المعاصرة عن فخر الدين وانسحابه من دمياط، وبين ما ورد في الوثيقة من إلقاء تبعات ذلك الانسحاب على غيره وتبرئته من تبعات الموقف تماماً. فقد ورد عند سبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م) وغيره، ما يدلُّ على تحميل

(٢١) يرد في الوثيقة ذكر لأحداث الانسحاب من دمياط، وهذا قد تم وصحة الصالح متردية.

(٢٢) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٢٢: ٤٠٩.

(٢٣) انظر نص الوصية في الملحق. وقد أشار كلود كان وإبراهيم شبوح في تعليقيهما إلى هذا، ورجحا الاختلاف في آخر الوصية، لكنهما قبلا بباقيها كما هو. انظر:



الصالح مسؤولية احتلال دمياط لفخر الدين<sup>(٢٤)</sup>، وسبط ابن الجوزي قد نقل أحداث دمياط بكثرة عن سعد الدين ابن حمويه (ت ٦٧٤هـ / ١٢٧٦م)، وهو ابن عم الفخر<sup>(٢٥)</sup>.

ثالثاً: تصبُّ الرسالة كلها في مصلحة شجر الدر والأمير فخر الدين، بشكل مبالغ فيه. وأعتقد أن هذا كان أحد أهم أسباب العداء الذي أبداه توران شاه لهما. وقد شعرت شجر الدر بتهديد حقيقي جعلها تحرّض المماليك على قتله، كما سبق ذكره. ومن المفيد أن نشير الآن إلى ما رجّح في زعمنا التزوير، من نقاط وردت في الوصية، تصب مباشرة في مصلحة الثلاثة القائمين على الأمور في آخر عهد الملك الصالح، المذكورين آنفاً:

١- الأمر بعدم مؤاخذه أحد بهزيمة دمياط، فقد ورد في الوصية: "ولا تؤاخذهم [أي الأمراء] بما جرى في دمياط، فهذا أمر سَمَويّ، ما لأحد في هذا حيلة"<sup>(٢٦)</sup>. المشكل في هذا القول أن الصالح أعَدَم من انسحب من دمياط من العربان، وعزم - طبقاً للمصادر - على الفتك بفخر الدين وكثير من أمراء الجند، حتى فكروا جدياً في قتله خوفاً على أنفسهم، لولا تفاقم مرضه الذي أملوا معه موته، وقال لهم فخر الدين: "اصبروا عليه، فهو على

(٢٤) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٢٢: ٤٠٨. الذهبي، تاريخ الإسلام، ١٤: ٣٦٣.

(٢٥) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٢٢: ٤٠٣، ٤٠٦، ٤١٧.

(٢٦) النويري، نهاية الأرب، ٢٩: ٣٤١.

شفى، فإن مات فقد استرحتم منه، وإلا فهو بين أيديكم" (٢٧). ويبدو أن الوصية تحمل رواية فخر الدين - التي تخالف المصادر المعاصرة - عما حدث وأدى إلى سقوط دمياط، وهي تخلي مسؤوليته تماماً، ولو كان هذا رأي الملك الصالح لما دبّ الخوف إلى أمراء الفخر، ولما تغير عليه. فقد ورد في الوصية: "فلما أقبل العدو وشاهدوه وطلبوا البرّ بالحراريق، انهزموا وسلّموا لهم البرّ، واشتغلوا بالنساء ونقلهم من دمياط، وهربت العوالم وتبعهم الأجناد، وكان المقدّم عليهم الأخ فخر الدين ساق خلفهم وردّهم، وجعل على أبواب دمياط كل باب أمير. فلما أصبح، ما وجد في المدينة أحد. هربوا الكنانية في الليل، وكسروا الخوخ ونزلوا من السور، وتركوا أموالهم وذخائرهم نهبوا المسلمين بعضهم بعض. وأخلوا دمياط، حتى أخذتها الفرنج ثاني يوم" (٢٨).

٢- لم تكتف الوصية بالحث على مراعاة مكانة شجر الدر عند السلطان، وتأكيد احترامها كالوالدة ومعرفة حقها ومكانتها، بل تعدت ذلك إلى: "واجعلها حاکمة على جميع

(٢٧) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٢٢: ٤٠٨؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ١٤: ٣٦٣؛ عبدالله بن أسعد الياضي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان (حيدر آباد: دائرة المعارف العثمانية، ١٣٣٧هـ)، ٤: ١١٦؛ إبراهيم بن محمد ابن دقماق، الجوهر الثمين في سير الملوك والسلطين، تحقيق: محمد كمال الدين علي (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م)، ٢: ٣٨؛ المقرئ، السلوك، ١/٢: ٣٣٦.

(٢٨) النويري، نهاية الأرب، ٢٩: ٣٤٤.

أمورك وأموالك"، "ولا تجعل على يدها يد" (٢٩). وهذه العبارات أجدها صعبة التخيل دون تزوير، ولا ننسى أن من أهم ما طالبها به توران شاه هي الأموال التي كانت عندها (٣٠)، وفي إشارة الوصية إلى جعل الأموال تحت حكمها محاولة استباقية للتخلص من هذه المطالبة. فلو اقتصر الأمر على الحث على أخذ مشورتها ورأيها لأصبح منطقيًا، أما تسليم كل شيء لها بحجة "هوج السلطان" الجديد، فهذا - في رأيي - بعيد كل البعد.

٣- نجد أيضًا في الوصية تحذير الملك الصالح لولده من استخدام النصارى في ديوان الجيش - نصًا - دون غيره من الدواوين. ثم يعدد مساوئهم التي جنت على الجيش ونظامه (٣١). ويحق لنا أن نتساءل: ألم تكن السلطات في يد الصالح لينفذ، أو حتى يأمر بتنفيذ ما أوصى به هنا؟ فإن كان مطلعًا حقًا على ما فصله في هذا الجانب فلماذا لم يأمر وزرائه بالتنفيذ؟ لكن الراجح أن ما ذكر هنا يمثل وجهة نظر نائب السلطنة وقائد الجيش الأمير فخر الدين، ورؤيته لنظام ديوان الجيش خاليًا من العقبات والفساد التي واجهها ويأمل تغييرها في عهد السلطان

(٢٩) السابق: ٣٤١-٣٤٢.

(٣٠) سبط ابن الجوزي، مرة الزمان، ٢٢: ٤١٧؛ أبو بكر بن عبد الله بن أبيك الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، ج ٧، الدرر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب، تحقيق: سعيد عبدالفتاح عاشور (القاهرة: المعهد الألماني للآثار، ١٣٩١هـ/ ١٩٧٢م)، ٣٨١-٣٨٢: المقريري، السلوك، ١/ ٣٥٨: ٢.

(٣١) النويري، نهاية الأرب، ٢٩: ٣٤٨.

الجديد. فهو لا يملك صلاحية تغيير جوهرى كهذا، والأسلوب الأمثل الذي يقود إلى تطبيق رؤيته - كما رأى - يكون وصية على لسان السلطان الوالد لابنه السلطان الجديد. وعبارات هذه الفقرة<sup>(٣٢)</sup> تدلّ على معرفة هذه المشكلات عن قرب، وسماعها من الجند أنفسهم، وهذا يرجّح كذلك أنها إضافة من فخر الدين. ولا يُعقل أن يثبت عند السلطان خلل كهذا، ويصل إلى قناعة بضرورة إصلاحه وإلا ذهب بدولتهم، إضافةً إلى اكتشاف جواسيس في هذا الديوان يتخابرون مع العدو، ثم لا يستطيع عمل شيء إلا وصية خليفته بعلاج هذه المشكلة!

٤ - التوصية بإبقاء جُلّ الأمراء الكبار، والإبقاء على ما تحت أيديهم ما خلا الأمير حسام الدين، وهو كما سبقت الإشارة المنافس الرئيس والأخطر للأمير فخر الدين. فقد ورد في الوصية بحقه: "والحسام يكون بمفرده لا حلّ ولا ربّط"<sup>(٣٣)</sup>.

٥ - التوصية بممالك عيّنتهم السلطان في ورقة عند الأمير فخر الدين! فقد ورد: "وقد عيّنتُ في ورقة عند الأخ فخر الدين عشرين من الممالك تُقدّمهم، تعطي كل واحد كوس<sup>(٣٤)</sup> وعلم وتُحسن إليهم"<sup>(٣٥)</sup>. فلو علمنا أن هناك أمراء من

(٣٢) انظر النص الكامل للوصية في الملحق.

(٣٣) النويري، نهاية الأرب، ٢٩: ٣٥٠.

(٣٤) الكوس والكوسات: هي صنوجات من نحاس تشبه الترس الصغير، يدق بها عند قلعة وخيمة السلطان وكبار الأمراء، وهي من علامات الإمارة. انظر: الفلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٤.

(٣٥) النويري، نهاية الأرب، ٢٩: ٣٥١.

المماليك مقربين من الأمير فخر الدين، لدرجة أنهم شاؤروه في قتل السلطان الملك الصالح لما خافوا على أنفسهم من عقابه بعد سقوط دمياط، كما سبق. إضافةً إلى أن هناك غيرهم من أمراء المماليك كادوا أن يقتلوا فخر الدين لما شعروا أنه يريد الاستيلاء على السلطنة بعد وفاة الصالح، أيضاً كما سبق أن ذكر، تتضح لنا أسباب إضافة هذا الجزء من الوصية.

إضافةً إلى ما سبق، فإن في الوصية وأسلوبها إشارة إلى أنها موجهة إلى جمهور معين، وقد كان هذا أحد أغراضها لو أن السلطان الجديد صدّقها واعتمدها. فالوصايا لا تُكتب بهذه الطريقة التي يكثر فيها الحكمة وطلبات التآني والعفو والتسامح إلا إن كانت موجهة إلى جمهور مستهدف، إلا أن سبب اختلاف لغتها من حيث البلاغة والصياغة عما عُرف عادة عن الوصايا التي تؤثر عن السلاطين وتوكل صياغتها إلى رؤساء الكُتّاب<sup>(٣٦)</sup>، هو ضيق الوقت وزيادة في إتقان الوصية؛ لأن المفترض أنها بخط السلطان، كما سبقت الإشارة. وإلا فالوصايا الحقيقية، التي وجهت بخط السلطان لولي عهده لا تكون استعراضية، وتكون عملية (برغماتية) جداً، ليس فيها تجميل وتزيين ومحاولة محاكاة البلغاء، كما هي الحال في هذه الوصية. إضافةً إلى أن الموصي لم تُعرف في سياسته صفات العفو والصفح التي زخرت بها الرسالة،

(٣٦) للمزيد راجع: سامي بن سعد المخيزيم، "وصايا سلاطين المماليك البحرية وتذاكرهم (٦٤٨-٧٨٤هـ / ١٢٥٠-١٣٨٢م): دراسة تحليلية"، (رسالة دكتوراه، جامعة الملك سعود، ١٤٣٣هـ).

فلماذا إذن إضاعة الوقت والجهد - على افتراض تسليم كتابة السلطان لها بيده -، والدولة مهددة بغزو صليبي استولى على دمياط، وأصبح خطره يهدد القاهرة، لمحاكاة وصايا يكتبها كبار الكتاب وينقحونها مدة طويلة، لأن المقصود منها حينها أن تبقى إرثاً للموصي في الدواوين، وتعكس ما يريد تسجيله هو في سيرته، من حكمة وروية وسياسة، إلى آخر ما يُحمد من الصفات؟!

### الخاتمة:

هذا البحث محاولة لتمحيص ما ورد في المصادر وفحصه، ومن ثمّ تقييمه استناداً إلى المصادر، وإلى استقراء الباحث لمصالح القوى المتصارعة على الحكم في مرحلة حرجية، تمثل أفول كيان سياسي وبزوغ آخر جديد. وقد حاول البحث قراءة ما بين السطور للوقوف على تفسير منطقي بعيداً عن تكرار تفسيرات المؤرخين السابقين. وعندما تصبح الوصايا في يد القوى السياسية المنافسة الطامحة للحكم، يجب إعادة النظر في تفاصيلها، كما في هذا البحث، الذي خلص إلى أن للوصية أصلاً، زيد فيه وبدل بعضه ليقدم مصالح المسيطر على الأمور سيطرةً تامةً في وقت كتابتها. وهو ما كان أحد أسباب سخط الملك المعظم توران شاه على أعمدة الدولة المتفردة، وهو أيضاً ما أدّى إلى قتله والتخلص منه سريعاً.

## ملحق

## وصية الملك الصالح نجم الدين أيوب

إلى ابنه الملك المعظم توران شاه (٣٧)

"بسم الله الرحمن الرحيم

الوَلَدُ تورانشاه - أصلحه الله ووفَّقه - يا ولدي، أنت تعلم سبب تأخير طلبك إلا ما أعلمه منك. من الصَّبِيَّانية والجُرْأة وقلة الثبات. والمُلْكُ ما يَحْتَمِلُ هذا. والوالد ما يشتهي لولده إلا الخير. والخصائل التي أعرفها منك اتركها، يدوم لك المُلْكُ. وإن أنت خالفتَ أمري وبقيتَ على ما أعلمه منك، يروح منك المُلْكُ. واثبت في جميع أمورك. وسنَّ سِيرَتِي في العسكر. واترك الأشياءَ على ما هي عليه: كل أحد مُتَوَلِّي الشغل الذي هو فيه، ولا تُحدِثْ حادث.

والوصية بجميع الأمراء، وأكرمهم، وارفَع منزلتهم. فهم جناحك الذي تطير به، وظهرُك الذي تركن إليه. وطيب قلوبهم، وزيد في إقطاعهم. وزيد كلَّ أمير على [ما] معه من العدة عشرين فارس. وأنفق الأموال. وطيب قلوب الرجال، يحبوك وتنال غرضك في دفع هذا العدو. ولا تُؤَاخِذْ بما جرى في دِمياط، فهذا أمرُ سَمَاوِيٍّ، ما لأحد في هذا حيلة.

والأخ فخر الدين بن الشيخ ما عندي من أقدم سواه، فأكرمهم، واحترمهم كما تحترمني. واجعله عندك كالوالد. واسمع قوله ورأيه ولا تُخالفه. واجعل له من العدة مائتي فارس.

(٣٧) النويري، نهاية الأرب، ٢٩: ٣٤١-٣٥٢.

يا ولدي: الوصية بأمر خليل، فلها علي من الحقوق والخدمة ما لا أقدر أصفه، أرعى جانبها وأكرمها واحترمها، وأرفع منزلتها، فهي عندي بمنزلة عظيمة. وكنت طيب القلب بصحبتها، آمناً على نفسي من جهتها. فاجعلها لك مثلاً الوالدة. واجتهد في اتصال الراحة إليها، وطيب قلبها، واجعلها حاكمة على جميع أمورك وأموالك. ولا يبدو منك كلمة تضيق صدرها، ولا توجع لها قلباً أبداً، ولا من يتعلق بسببها، ولا من يضيق صدرها بسببه.

ولا تخرج عن رأيها وتدبيرها. وهذه وصيتي فلا تخالف أمري. واخدمها كما تخدمني، واحترمها كما تحترمني. ولا تجعل علي يدها يد. والوصية بجميع العيال، أحسن إليهم فلهم علي خدمة. ولا تقصر في حق الصغير منهم والكبير. واحفظ وصيتي، فمتى خالفتي يروح منك الملك، وتكون عاقاً لي. وكتبت هذه الوصية ولم يطلع عليها أحد، لئلا تضيق صدورهم. وكتبتها في مدة طويلة.

واعلم يا ولدي أن الملك في ابتداء ملكه كمثل الشجرة في ابتداء طلوعها، فيأتي ريح يهب عليها يحركها، وربما يقلعها من أصلها. فإذا مضت عليها الأيام والسنين قوي أصلها، واشتد ساقها، فلا تحركها الرياح العواصف. فاعلم يا ولدي إشارتي، وتنبيه لغرضي. وإن ضاق صدرك من شخص فاحتمله، وأحسن إليه تحسن سيرتك، ويحبك عدوك. ولا تعجل بالعقوبة. واعلم أن الناس أعداء لبعضهم البعض، فلا تسمع كلام أحد دون أن تقابل بينه وبين خصمه، ولو أتاك



مقطوع اليد . فربما خصمه أسوأ حالاً منه . فإذا عُرِفَ هذا منك ، تَقَلُّ الشَّكَاوَى وَالرَّفَاعَات ، وَيَسْتَرِيحُ خَاطِرُكَ .

وَالَّذِي أُعْرِفُكَ بِهِ يَا وَلَدِي : لَمَّا نَزَلَ الْعَدُوُّ عَلَى زَمَنِ الشَّهِيد<sup>(٣٨)</sup> - رَحِمَهُ اللَّهُ - عَلَى دَمِيَاط ، مَا كَانَ فِيهَا سِوَى الْوَالِي وَالْكَنَانِيَّة ، وَأَهْلُهَا حَفَظُوهَا إِلَى أَنْ وَصَلَ الشَّهِيدُ مِنَ الْقَاهِرَةِ ، وَعَسَكَرُ مِصْرَ مِنَ الشَّامِ . وَمَا قَدَرَ الْعَدُوُّ يَنْزِلَ بَرِّ دَمِيَاط ، وَمَا كَانَ فِيهَا ذَخِيرَةٌ شَهْرٍ وَاحِدٍ .

فَلَمَّا اخْتَلَفَ الْعَسْكَرُ عَلَى الشَّهِيد - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَتَحَزَّبُوا - مِثْلَ ابْنِ الْمَشْطُوبِ وَالْأَكْرَادِ - مَعَ الْمَلِكِ الْفَائِزِ ، غَضِبَ الشَّهِيدُ ، وَسَاقَ إِلَى أَشْمُومَ . وَتَبَعَهُ الْعَسَاكِرُ ، وَتَرَكُوا جَمِيعَ الْخِيَمِ وَالْقُمَاشِ . وَخَرَجَ مِنْ دَمِيَاطَ مِنْ خَرَجٍ ، وَالْوَالِي .

وَمَا بَقِيَ فِيهَا إِلَّا أَهْلُهَا . وَغَلَقُوهَا وَقَعَدُوا فِيهَا وَحَفَظُوهَا ، إِلَى أَنْ مَاتَ أَكْثَرُ مَنْ فِيهَا وَالْبَاقِي تَكَشَّحُوا ، وَخَلَّتِ الْأَصْوَارُ [ كَذَا ] مِنَ الْمُقَاتِلِينَ . فَصَعِدَتِ الْفَرْنَجُ وَأَخَذَتْهَا ، بَعْدَ أَنْ تَعَبُوا مِنَ النُّقُوبِ مِنْ تَحْتِ الْأَرْضِ ، وَشَرَبُوا بِالْبِتَاتِي ، وَالزَّحْفَ عَلَيْهَا مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ ، وَمَا قَدَرُوا يَأْخُذُوهَا .

وَأَنَا قَوَّيْتُ دَمِيَاطَ ، وَمَلَأْتُهَا ذَخَائِرَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، يَكْفِيهَا عِشْرِينَ سَنَةً ، مَعَ مَا كَانَ عِنْدَ أَهْلِهَا مِنَ الذَّخَائِرِ . وَاكْشَفُ مِنَ الدِّيَوَانِ يُعْرِفُوكَ مَا كَانَ فِيهَا مِنَ الْخَيْرَاتِ . وَقَوَّيْتُهَا بِجَمِيعِ عَسْكَرِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، مِنْ فَارِسٍ وَرَاجِلٍ ، وَنَقْدِي ، وَمَا خَلِيتَ لَهَا عُدْرًا ، حَتَّى بَقِيَتْ وَحْدِي فِي أَشْمُومَ بِسَبَبِ الْمَرَضِ .

(٣٨) المقصود: الملك الكامل بن العادل الأيوبي (٦١٥-٦٣٥هـ/ ١٢١٨-١٢٣٨م).

فلما أن أَقْبَلَ العدو وشاهدوه وطلبوا البرَّ بالحراريق<sup>(٣٩)</sup>، انهزموا وسَلَّمُوا لهم البرَّ، واشتغلوا بالنساء ونَقَلَهُمْ [كذا] من دمياط، وهَرَبَتِ العَوَامُ وَتَبِعَهُمُ الأَجْنَادُ. وكان المُقَدَّمُ عليهم الأَخُ فخر الدين سَاقَ خَلْفَهُمْ وَرَدَّهُمْ، وجعل على أبواب دمياط كل باب أمير. فلما أصبح، ما وجد في المدينة أحد. هربوا الكنانية في الليل، وكسروا الخُوخ<sup>(٤٠)</sup> ونزلوا من السور، وتركوا أموالهم وذخائرهم نهبوها المسلمون بعضهم بعض. وأخلوا دمياط، حتى أخذتها الفرنجُ ثاني يوم. وهذا كله بقضاء الله وقدره .. واصبر تنال ما تريد.

وهذا العدو المَخْذُول، إن عَجَزَتْ عنه، وخرجوا من دمياط وقصَدُواكَ، ولم يكن لك بهم طاقةٌ وتأخَّرْتَ عنكَ النَجْدَةُ، وطلبوا منك الساحلَ وَبَيْتَ المقدسِ وَغَزَّةَ وغيرها من الساحل - أعطِهم ولا تَتَوَقَّفْ، على أن لا يكون لهم في الديار المصرية قَعْرُ قَصَبَةٍ.

وإن نزلوا مَنْزِلَةً من تَقَدَّمَهم من العدو قُبَالَةَ المنصورة، فرتب العسكر يكونوا ثابتين خلف الستائر مع البحر، ليل

(٣٩) جمع: حَرَّاقَة: وهي سفينة فيها مرامي سهام نارية يرمى بها العدو. راجع: بطرس البستاني، محيط المحيط (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٨٧م)، ١٦٣.

(٤٠) جمع "الخُوخَة" وهي مُخْتَرَق ما بين كل بابين، أو بين كل دارين لم يفتح بينهما باب. راجع: علي بن إسماعيل ابن سيده، المخصص، تحقيق: خليل إبراهيم جفال (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م)، ١: ٥١٣.

نهار. فهم ما لهم زحفٌ إلا بالشَّوَانِي<sup>(٤١)</sup>، فقوُّوا الشَّوَانِي،  
كيفما قَدَرْتُمْ. واجهدوا أن يكون بعضُ الحَرَارِيقِ على بحرِ  
المَحَلَّةِ من خلفِ مراكبهم، تقطع عنهم الميرة. وهو يكون - إن  
شاء الله - سببَ هلاكهم. فتلك المِرَّةُ ما انتصر الشهيدُ  
- رحمه الله - عليهم إلا من بحرِ المَحَلَّةِ.

وتكون العرب مع الخَوَارِزْمِيَّةِ مع ألفين فارس بينهم  
وبين دمياط. واستخدم الفارس والراجل. وأنفق الأموال ولا  
تتوقف. وإن كان الشَّرْقُ لا يُنْجِدُوكَ لأجلِ الناصر<sup>(٤٢)</sup>  
وإسماعيل<sup>(٤٣)</sup>، واشترطوا أن تَرُدَّ عليهم بلادهم، ورأيتَ  
الغُلُوبِيَّةَ، ولا بدَّ من ذلك وإلا ذهب الملكُ - فالضرورات لها  
أحكام.

(٤١) جمع: الشَّوَانِي أو الشَّيْنِي: سفينة شراعية حربية. راجع: رينهارت دوزي،  
تكملة المعاجم العربية، ترجمة: محمد سليم النعيمي وآخرين  
(بغداد: وزارة الثقافة والإعلام، دار الشؤون الثقافية، ١٩٧٨-٢٠٠١م)،  
٢٢٥: ٦.

(٤٢) الناصر داود بن المعظم عيسى (ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) صاحب الكرك؛  
وهو الذي ساند الصالح إلى أن تغلب على حكم مصر. انظر عنه: ابن  
واصل، مفرج الكروب، ٢١٩؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ١: ١٢٦؛  
الذهبي، تاريخ الإسلام، ١٤: ٨٠٤.

(٤٣) الصالح عماد الدين إسماعيل بن محمد بن الملك العادل  
(ت ٦٤٨هـ / ١٢٥١م)، له صراع طويل مع الملك الصالح نجم الدين  
أيوب، وقُتِلَ بعد أن أسره المماليك وهو يقاتل مع الملك الناصر  
صاحب دمشق. انظر عنه: الذهبي، تاريخ الإسلام، ١٤: ٥٩٣؛  
الصفدي، الوافي بالوفيات، ٩: ٢١٥؛ أبو المحاسن يوسف ابن  
تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ج ٢، تحقيق:  
محمد محمد أمين (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م)،  
٤٢٠.

اعْلَمْ - يا وَلَدِي - أن الديارَ المصرية هي كُرْسِيُ المملكة،  
وبها تَسْتَطِيلُ على جميع الملوك. فإذا كانت بيدك، كان بيدك  
جميع الشرق. وَيَضْرِبُوا لك السَّكَّةَ والخُطْبَةَ.

فَاتَّفَقَ أنت والأخ فخر الدين، وأَرْضِي الناصرَ بما يطيب به  
قلبه. فالناصرُ ما أَخْرَجَهُ من يدي إِلَّا تَغْيِيرِي عليه، بسبب  
أوراق كانت تصل إليَّ عنه أَنه فَعَلَ وَصَنَعَ. وَكَشَفْتُ عن ذلك،  
ما رأيتُ لها صِحَّةً. فلما انقطع رَجَاهُ مِنِّي لِتَغْيِيرِي، استند  
إلى إسماعيل وابن مَمْدُود<sup>(٤٤)</sup>، وَجَرَى منهم ما جرى. كل  
ذلك من إسماعيل وابن مَمْدُود، وهو يُشَارِكُهُم في جميع ما  
يفعلوه.

وأما الذي فَعَلَهُ معي على نابلس فما كان إِلَّا مصلحةً  
عظيمة، أنا أَشْكُرُهُ عليها. طَلَعَ بي الكرك إلى أن ذَهَبَتْ أيامُ  
القُطُوع. لولا ذلك أَخَذَنِي إسماعيل، لأنه ضَيَّقَ عَلَيَّ أرضَ  
الشام بالعسكر في طَلْبِي، فما فعل في حقي إِلَّا خير. فهو  
كان السبب في خروجي، في الوقت الذي كان قَدَّرَ الله  
بتوجهي فيه إلى الديار المصرية بالملك. فلا يضيع له هذا  
القَدْر.

وكنت نَوَيْتُ له كلَّ خير. فإن حصل بينكما اتِّفَاق، وَصَفَتْ  
نِيَّتُهُ في محبتك، وَوَفَى لك باليمين، فخاطركُ به مُسْتَرِيح  
في أَمْرِ الساحل. فما ذُنُوبُهُ عندي ذُنُوبُ إسماعيل، الذي

(٤٤) صاحب دمشق الملك الجواد مظفر الدين يونس بن ممدود بن محمد  
بن أيوب بن شاذي (ت ٦٤١هـ / ١٢٤٤م). انظر ترجمته في: الصفدي،  
الوافي بالوفيات، ٢٩: ٤٠٢.

بَارَزَنِي، وَأَخَذَ مِنِّي دِمَشْقَ، وَاعْتَقَلَ وَلَدِي، وَفَعَلَ فِي حَقِّي مَا فَعَلَ، وَأَعْطَى السَّاحِلَ وَالْحَصُونَ الَّتِي فِيهِ لِعَدُوِّ الدِّينِ، وَاسْتَعَانَ بِالْكَفَرِ عَلَيَّ، وَعَلَى أَخْذِ بِلَادِي. فَأَرْضِيهِ بِشَيْءٍ يَسْتَعِينُ بِهِ: بُصْرَى مَعَ السَّوَادِ، وَلَا تُعْطِي لَهُ قَلْعَةً بَعْلَبَكْ. وَتُحَسِّنْ إِلَى أَوْلَادِهِ وَأَهْلِهِ، وَيَنْفِذُوا إِلَيْهِ. فَالْهِ يَقَابِلُ الْمَسِيَّ، وَيُجَازِي الْمُحْسِنَ. وَأَطْلِقِ الْمُحْتَبَسِينَ كُلَّهُمْ، إِلَّا مَنْ كَانَ لَهُ تَعَلُّقٌ فِي قَبْضِ عَمِكَ، أَوْ مَفْسِدٌ فِي الدَّوْلَةِ.

فَإِنَّ قَدَرَ اللَّهِ لَكَ بِالنَّصْرِ عَلَى هَذَا الْعَدُوِّ الْمَخْذُولِ، وَأَخَذْتَ دِمْيَاطَ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - ابْنِي بِأَشُورَةَ<sup>(٤٥)</sup> تَكُونُ طَوَّلَ قَامَةٍ، وَبَسْطَةَ بِشَرَارِيفٍ، وَمَرَامِيٍّ مِنْ فَوْقٍ وَأَسْفَلَ، وَتَكُونُ الْبَاشُورَةُ عَرَضٌ يُتِمَكَّنُ الْقِتَالُ عَلَيْهَا، إِمَّا بِالْحَجَرِ أَوْ بِالطُّوبِ الْأَحْمَرِ، وَيَكُونُ لَهَا سَلَالِمٌ، بَيْنَ كُلِّ سَلْمٍ وَسَلْمٍ ثَلَاثِينَ خُطْوَةً. تَعْمَلُ هَذِهِ الْبَاشُورَةُ مِنْ قُبَالَةِ بُرْجِ السَّلْسَلَةِ، قَرِيبَ مِنَ الْمَاءِ الْبَحْرِ [كَذَا] إِلَى الْبَرْزَخِ، إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي نَزَلُوا فِيهِ الْفَرَنْجُ، وَفَوْقَ مِنْهُ بِثَلَاثِ رَمِيَّاتٍ نُسَّابٍ. وَمِنْ آخِرِ هَذِهِ الْبَاشُورَةِ تَحْفَرُ خَنْدَقٌ، مِنَ الْبَحْرِ الْمَالِحِ إِلَى الْبَحْرِ الْحَلَوِ، مِثْلَ مَا حَفَرَهُ الشَّهِيدُ تِلْكَ الْمَرَّةَ، بِحَيْثُ إِذَا جَاءَ الْعَدُوُّ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْمَاءِ الْحَلَوِ، وَلَا يَبْقَى لَهُ مَنْزِلَةٌ يَنْزِلُ فِيهَا. وَبَيْنَ كُلِّ سَلْمَيْنِ لِعَبَتَيْنِ يَرْمُونَ بِالْحِجَارَةِ، وَالْعَسْكَرُ تُقَاتِلُ مِنْ عَلَى الْبَاشُورَةِ وَالْمَنْجَنِيقِ وَالرَّمَاةِ تَرْمِي مِنَ خَلْفِ الْبَاشُورَةِ مِنَ الْمَرَامِيٍّ، مَا يَقْدِرُ أَحَدٌ يَقْرُبُ الْبَرِّ. وَعَجِبْتُ كَيْفَ غَفَلَ عَنْ هَذَا الشَّهِيدِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَعَمَلَ قَلْعَةً.

(٤٥) الباشورة: مكان للحراسة والمراقبة. راجع: دوزي، تكملة المعاجم، ١: ٣٥٠.

فهذه الباشورة فيها ألف مصلحة قسّطها على الأمراء وعلى بيت المال والأسرى الفرنج تعمل فيها. واجتهد في عملها تأمن على دمياط وتستريح وإن لم يخرج العدو من دمياط وتطاول الأمر ينتظروا نجدة تصل إليهم، ازحف عليهم من بر دمياط ومن بر البرزخ، بالفارس والراجل وبالشواني من البحر، لعل أن تملكوا بر البرزخ. فإذا ملكتموه ملكتم فم البحر، ومنعتوا أن يدخل إليه مركب، أو يخرج.

ويا ولدي: قلّدت إليك أمور المسلمين، فافعل فيهم ما أمرك الله به ورسوله. يا ولدي إياك والشرب، فإن جميع الآفات ما تأتي على الملوك إلا من الشرب. ولا تخالفني ندم، وتدخل عليك العارض. فما يسقيك إلا من تأمن إليه، ولا تدخل عليك العارض إلا من القريب. يا ولدي: وامنع المسلمين والنصارى أن يعصروا الخمر. وطهر العساكر من القحاب، والمدن. ولا تجلس مع من يشرب، فيزين لك الشيطان فتشرب، فتكون قد خالفني، وتدخل عليك العارض. وأنا قد جربت الأشياء ووقعت فيها، وتحققت الخطأ من الصواب، وندمت وقت لا ينفع الندم. فاجتنب يا ولدي ما حذرتك منه. فقد أخبرك مجرب صادق، مشفق عليك.

وانظر يا ولدي في ديوان الجيش. فهم الذين أفسدوا البلاد وأخربوها - وهم النصارى - أضعفوا العساكر، وكان البلاد ملكهم يبيعونها بيع. إذا كتب منشور لأمير يأخذوا منه

المائتين وأكثر، ومن الجندي من المائة ونازل. ويكون الجندي خُبْرُهُ<sup>(٤٦)</sup> ألف دينار يفرقوا خُبْرَهُ في خمس ست مواضع: في قُوص وفي الشرقية وفي الغربية، فيريدُ الجندي أربع وكلاء، يروح الخُبْرُ للوكلاء. ومتى يحصل للجندي من خُبْرِهِ شيء، إذا كان مثلاً في بَيْكَار<sup>(٤٧)</sup> وَيُقَاسِي العَلِيقَةَ<sup>(٤٨)</sup> بثلاثة نُقْرَةٍ<sup>(٤٩)</sup>، كيف يكون حاله؟ يَخْرَبُ بيته ويَهْلِك! فهذا سبب هلاك الجندي. والنصارى يقصدوا هذا، لخراب البلاد وضعف الأجناد، حتى تروح منا البلاد. وجندي يحصل له وجندي ما يحصل له شيء أصلاً.

تَرُدُّ عِبْرَةَ البلاد إلى ما كانت عليه في زمن صلاح الدين - رحمه الله. والجندي لا يكون خُبْرُهُ مُفَرَّق، بل في موضع أو موضعين قريبين. فتعمر البلاد ويقوى الجندي ويقوى الفلاح. فإذا كانوا جماعة في بلد، وكل أحد يخرب من ناحية ويجور المُقْطَعِينَ على الفلاحين، تخرب البلاد. وهذا كله فِعْلُ النصارى.

وبلغني أنهم بَعَثُوا إلى ملوك الفَرَنْج في الساحل في الجزائر، وقالوا لهم: أنتم ما تجاهدوا المسلمين، بل نحن

(٤٦) إقطاعه الذي يأخذ منه مخصصه.

(٤٧) بَيْكَار، وجمعها: بَيَاكِير؛ وهي الحرب أو الحملة العسكرية. انظر: دوزي، تكملة المعاجم، ١: ٥٠٦.

(٤٨) علف الخيل. راجع: دوزي، تكملة المعاجم، ٧: ٢٨٥.

(٤٩) الدراهم النُقْرَة: ثلثاها فضة، وثلثها نحاس. راجع: أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا (مصر: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، د.ت)، ٣: ٤٣٩.

نجاهُدهم الليل والنهار، بأخذ أموالهم ونَسْتَحِلُّ نساَهم،  
ونُخَرِّبُ بلادَهم ونُضْعِفُ أجنادَهم. تعالوا خُذُوا البلادَ، ما  
تركنا لكم عاقَّة. فالعدوُّ معك في دولتك - وهم النصارى. ولا  
تركن لمن أسلم منهم ولا تَعْتَقِدْ عليه، فما يُسَلِّم أحد منهم إلا  
لِعِلَّة، ودينه في قلبه باطن كالنار في الحطب!

يا ولدي، أكثر الأجناد اليوم عامَّة، وباعة وقزَّازين: كل من  
لبس قَبَاءً وركبَ فَرَس، وجاء إلى أمير من هؤلاء الترك، وقدم  
له فرس، ويُبْرِطِل<sup>(٥٠)</sup> نَقِيبَه وأُستاذَ داره<sup>(٥١)</sup> على خُبَرِ جندي،  
من جندي معروف بالشجاعة والحرب - طرده أميره، وأعطى  
خُبْرَه لذاك العامي الذي لا ينفع وأكثرهم على هذه الحالة.  
فإذا عاينوا العدو وقت الحاجة هَرَبُوا، وينكسروا العسكر.  
لأنهم ما يعرفوا قتال، ولا هو شُغْلُهم. فينبغي أن لا يُستَخدم  
[إلا] من يعرف يلعب بالرمح على الفرس، ويرمي بالنشَّاب  
والأُكْرَة، وتظهر فُروسيته - حينئذ يُستخدم.

(٥٠) البرطيل: الرشوة، والبرطلة: الارتشاء. انظر: محمد المرتضى  
الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق:  
عبد الستار أحمد فراج وآخرين (الكويت: وزارة الإرشاد والأنباء، وزارة  
الإعلام، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٣٨٥-١٤٢٢هـ/  
١٩٦٥-٢٠٠١م)، ٢٨: ٧٥.

(٥١) الإِسْتَدَار: لقب من ولي قبض مال الأمير أو السلطان، ومن ثمَّ  
صرفه في أوجهه. وهو مركَّب من لفظتين فارسيتين: (إِسْتَدَ)  
ومعناها الأخذ، و (دار) ومعناها المُمسك. وينبَّه القلقشندي على  
أن كتابتها (أستاذ الدار) - كما وردت في النص أعلاه - خطأ،  
لأن من كتبها هكذا ظن أنها من لفظة (الدار) العربية، و (أستاذ)  
بمعنى السيد أو الكبير، وليس كذلك. راجع: القلقشندي، صبح  
الأعشى، ٥: ٤٥٧.



وَأَحْفَظُ يَا وَلَدِي مَا أَقُولُهُ لَكَ، فَهَذَا جَمِيعُهُ مَا عَرَفْتَنِي بِهِ إِلَّا الْأَخُ فَخَرَّ الدِّينَ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ وَقَفَ عَلَى كِتَابٍ بِخَطِّ صَاحِبِ الدِّينِ، أَنَّ الْفَيُومَ وَسَمَنُودَ وَالسَّوَّاحِلَ وَالْخَرَجَ لِلْأَسْطُولِ. فَالْأَسْطُولُ أَحَدُ جَنَاحِي الْإِسْلَامِ. فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونُوا شِبَاعًا. وَرِجَالُ الْأَسْطُولِ إِذَا أُطْلِقَ لَهُمْ كُلُّ شَهْرٍ عَشْرِينَ دِرْهَمًا مُسْتَمِرَّةً رَاتِبَةً، جَاءُوا مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، وَرِجَالٌ مَعْرُوفِينَ بِالْقَذْفِ وَالْقِتَالِ. وَإِنَّمَا تَجُوْ وَقْتُ الْحَاجَةِ تَقْبِضُوا نَاسَ مُسْتَوْرِينَ لَهُمْ أَطْفَالٌ وَبَنَاتٌ، وَهُوَ الَّذِي يُطْعِمُهُمْ وَيَسْقِيهِمْ، تَأْخُذُوهُ فِي الْأَسْطُولِ وَلَا يَنْفَعُ، تَمُوتُ أَطْفَالُهُ بِالْجُوعِ، وَيَدْعُو عَلَيْنَا! كَيْفَ تَنْتَصِرُ عَلَى الْعَدُوِّ؟ وَتَأْخُذُوا إِلَى الْبَحْرِ عِنْدَ قَبْضِ الْأَسْطُولِ كُلِّ يَوْمٍ أَلْفَ دِينَارٍ، لِأَنَّهُ يَقْبِضُ مِنَ الصَّبْحِ إِلَى الْمَغْرِبِ، مَسَاتِيرَ وَبِيَاعِينَ وَأَرْبَابَ مَعَايِشَ، يَجُوْ أَهَالِيَهُمْ إِلَى بَيْتِ الْوَالِي، كُلُّ أَحَدٍ يَزِنُ الذَّهَبَ وَيُخَلِّصُ نَفْسَهُ. وَالْفَقِيرُ الَّذِي مَالُهُ قُدْرَةٌ تُحَدِّثُهُ فِي الْمَرَاجِكِ. فَقَدْ نَبَّهْتُ الْوَلَدَ عَلَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ. وَالْأَخُ فَخَرَّ الدِّينَ عَرَفْتَنِي بِهِذِهِ الْأَحْوَالِ جَمِيعُهَا. فَاسْمَعْ مَا يَقُولُهُ لَكَ.

الْوَلَدُ يَتَوَصَّى بِالْخُدَامِ: مُحَسِّنٌ وَرَشِيدٌ وَالْخُدَامُ الْمُقَدَّمِينَ، لَا تَغْيِرُهُمْ. فَمَا قَدَّمْتُ أَحَدًا مِنَ الْخُدَامِ وَلَا مِنْ الْمَمَالِكِ إِلَّا بَعْدَ مَا تَحَقَّقْتُ نُصْحَهُ وَشَفَقَتَهُ. وَأَسْتَاذُ الدَّارِ وَأَمِيرُ حَانِدَارِ (٥٢)

(٥٢) إمرة الجاندار: وظيفة عالية يستأذن لمن أراد الدخول على السلطان من الأمراء ويتقدمهم في الدخول، ويقدم البريد مع الدوادار وكتاب السر، ومسؤول عن الزردخانه (دار السلاح). راجع: القلقشندي، صبح الأعشى، ٤: ٢٠.

تتوصى بهم. وكذلك الحُسام لا تغيّرهم. فإني أعتد عليهم في جميع أموري.

القيّمريّة<sup>(٥٣)</sup>، الولد لا يسمع كلام بعضهم في بعض. وناصر الدين عند [ه] كذب وخُبت. وما باطنه جيد. وقد عرّفتُ الأخ فخر الدين الرُّسل الذي مُسكوا من دمشق إلى حلب من عنده. والحسام يكون بمفرده لا حلّ ولا ربط. وضيا الدين القيّمري، إن احتاجوا إلى أن يخرج عسكر إلى جهة من الجهات، يكون مُقدّم. وناصر الدين أرجل لا يخرج مع عسكر. وسيف الدين القيّمري تعمل معه ما يُقرر مع الأخ فخر الدين، يكون مُقدّم العسكر في دمشق. وابن يغمور مُشد<sup>(٥٤)</sup>، وناصر الدين على المظالم. فابن يغمور يصلح يكون مُشدّ ووالي وجابي الأموال، ولا يصلح يكون مُقدّم على عسكر، ولا يصلح لجندية. ولا تؤمن إليه كل الأمان. بل تُمشي به الحال في مكان مُدة، ثم يُنقل إلى غيره. وهو بالكتاب أليق.

وكذلك قرائب فخر الدين عثمان كلهم لا يصلحوا لجندية. ابن العزيز الرأي عندي أن تؤخذ جماعته، ويبقى هو ومماليكه بمفردهم، ويُقطع له ولمماليكه، وحاشيته ودوره، ما يقوم بهم من خاصة. فالأخ فخر الدين يعرف ما جرى

(٥٣) نسبة إلى قلعة قيّمر، وهي قلعة في الجبال بين الموصل وخلاط، نسب إليها أمراء دمشق من الأكراد. راجع: عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، لب اللباب في تحرير الأنساب، تحقيق: هنريكو إنجلينو ويجرز (مدريد: لوختمان، ١٨٤٠م)، ١: ٣١٦؛ الحموي، معجم البلدان، ٤: ٤٢٤.

(٥٤) المشد: يمكن تعريفه الآن بالمراقب والمفتش على دواوين الدولة، ويكون في كل ديوان وعمل مشد خاص به. راجع: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٢: ٤٥٧، ٣٠١، ٤: ١٨٦ وغيرها في مواضع متعددة.

منه، فهو نَحَسٌ مفسد مخسّس. وقد عَرَفَ الأخُ فخر الدين حاله وما جرى منه في دميّاط وغير دميّاط، فما يصلح لصالحة.

مُتَوَلَّى ديوان الأَحْبَاس<sup>(٥٥)</sup> اصْرَفَه. ووَلَّى ابن النّحَوِي، فقد سألتني المتصدرين ذلك. وطرائق بن الجباب غير صالحة. والوكيل اصْرَفَه. ووَلَّى ابن الفقيه نصر، فهو رجل جيّد فقيه عنده خوفٌ من الله.

وقد عَيَّنْتُ في ورقة عند الأخ فخر الدين عشرين من المماليك تُقَدِّمُهُمْ، تعطي لكل واحد كُوس وعَلَم، وتُحَسِّن إليهم. وتَتَوَصَّى بالمماليك غاية الوصية. فهم الذي [كذا] كنت أَعْتَمِد عليهم، وأثق بهم. وهم ظهري وساعدي. تتلطف بهم، وتُطَيِّب قلوبهم، وتوعدهم بكل خير. ولا تخالف وصيتي. ولولا المماليك ما كنتُ قدرتُ أركب فرس، ولا أروح إلى دمشق، ولا إلى غيرها. فتكرمهم وتحفظ جانبهم.

فهذه وصيتي إليك، فاعمل بما فيها ولا تخالف وصيتي. وكل يوم طالعها، واقف عليها. ولا تعمل شيء دون أن تشاور الأخ فخر الدين. والله يقدر بما فيه الخير إن شاء الله تعالى.

يا ولدي، إن أَلْزَموك - الحلبيين - أن تدفع الكَرَك إلى الناصر، فأعطه الشَّوَبَك. وإن لم يَرْضَ زِدْهُ من الساحل، حتى يَرْضَى. ولا تخرج الكَرَك من يدك. الله الله احفظ وصيتي. فلا تعلم ما يكون من هذا العدو والمخذول، لعله - والعياذ

بالله - أن يتقدم إلى مصر يكون ظهرك الكرك، تحفظ فيه رأسك وحريمك، فمصر ما لها حصن. ويجتمع عندك العسكر وتتقدم إليهم، تردهم عن مصر. وإن لم يكون لك ظهر مثل الكرك، تفرقت عنك العساكر. وقد عزم أن أنقل إليها المال والذخائر والحرم، وكل شيء أخاف عليه، وأجعلها ظهري. والله ما قوي قلبي واشتد ظهري، إلا لما حصلت في يدي. الحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد نبيه - وآله وصحبه - وسلامه".